# حافظ وشوقي

صدى الحوادث عند الشاعرين

## وفاة مصطفى كامل [1]

أما حافظ فقد رثى مصطفى كامل بثلاث قصائد ، ولكنها نُظمت بين هول الفجيعة ... فالأولى أُلقيت على قبر الفقيد ساعة دفنه ، والثانية في ذكرى الأربعين . أما الثالثة فقد نظمها عند إحياء ذكرى مرور عام على وفاته .

وأولى هذه القصائد هي أقواها عاطفةً وشعوراً ، وأبلغها تأثُّراً وإحساساً ، وأدقُّها تصويراً للفجيعة ، فقد عُني فيها بتصوير رسالة الفقيد ، فهي من هذه الوجهة ناطقةٌ ببطولة مصطفى وجهاده وأثر هذا الجهاد في يقظة الشعب وفي إقلاق راحة الغاصبين ، وهذا ما خَلَتْ منه قصيدة شوقي الأولى ... وهي كذلك صادقةٌ في كل شيء لولا العيب الذي أُخذ على حافظ في البيت الأول من هذه القصيدة فقد جاوزت مبالغته حدَّ المعقول للواقع إذ كان خياله في هذا البيت سقيماً وذلك في قوله مخاطباً قبر مصطفى « فكبِّرْ وهلِّلْ والقَ ضيفَكَ جائياً » فلو أن القبر يتلقى ضيفَه بهذه الصورة لكان معنى ذلك تهدُّمه ... ولكن ما أروع قوله :

فيا سائلي أين المروءةُ والوفا ... وأين الحجا والرأي ؟ ويحكَ هاهيا !

ويصوِّر ذلك الفراغ الذي خلَّفه الفقيد وأثره في نفس الغاصب فيقول :

هنيئاً لهم فلْيأمنوا كلَّ صائحٍ ... فقد أُسكتَ الصوتُ الذي كان عاليا

ومات الذي أحيا الشعورَ وساقه ... الى المجد فاستحيا النفوسَ البواليا

(١) راجع مقتطف نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٤٧

ويخاطب الفقيد قائلاً :

عليك ، وإلاّ ما لهذا الحزن هاملاً ! وفيك وإلاّ ما لهذا الشعب باكيا !
يموت المداوي للنفوس ولا يرى لما فيه من داء النفوس مداويا
وكنّا نياماً حينما كنتَ ساهداً فأسهدْتنا حزناً وأمسيتَ غافيا
فهيدَ العلا لا زال صوتك بيننا رنيناً كما قد كان بالأمس داويا

وهي على هذا الوتر قطعةٌ من الإحساس الباكي المتفجع ، وإنه ليحسُّ بذلك فيقول فيها :

عهدناكَ لا تبكي وتكره أن يُرَى أخو البأس في بعض المواطن باكيا
فرخِّصْ لنا اليوم البكاءَ وفي غدٍ نرانا كما تهوى جبالاً رواسيا

وهذه القصيدة تعبر عن الإحساس الباطنيّ أكثر مما تعبر عن الإحساس الخارجي لأن الشعور الواعي لم يعمل فيها عمل العاطفة ، ولم يظهر أثره فيها بمقدار ظهوره في قصيدته الثانية أو الثالثة . فإن القصيدة الثانية التي قال في مطلعها :

نثروا عليك نوادي الأزهار وأتيتُ أنثر بينهم أشعاري

تحسُّ فيها عملَ الشعور الواعي فهو يستعرض حوادث خارجيةً ومواقف للفقيد مضى يقصُّها في أبيات بعضها تغلب عليه روحُ الشعر وبعضها الآخر يتخلّى عنه ذلك . على أن من أبدع ما فيها تصويره لجنازة الفقيد إذ يقول :

شاهدتُ يوم الحشر يوم وفاته وعلمتُ منه مراتبَ الأقدار
ورأيتُ كيف تفي الشعوبُ رجالها حقَّ الولاء وواجب الإكبار
تسعون ألفاً حول نعشك خُشَّعٌ يمشون تحت ( لوائك ) السيّار
خطّوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزن أسطاراً على أسطار
آناً يوالون النحيب كأنهم ركبُ الحجيج بكعبة الزُّوّار
وتخالهم آناً لفرط خشوعهم عند الصلى يتعثرون لقياري
غلب الخشوعُ عليهمُ فدموعهم تجري بلا كلحٍ ولا استنثار
قد كنتُ تحت دموعهم وزفيرهم ما بين صيلم دافق وقعرار

أسعى فيأخذني اللهيب فأنثني فيصدُّني متدفقُ التيـــارِ
لو لم أُلَذْ بالنعش أو بظلاله لقضيت بين مراجل ومخـارِ
كم ذات خدر يوم طاف بك الردى هتكتْ عليك حرائرَ الأستارِ
سفرتْ تودِّع أمةً محمولةً في النعش لا خبراً من الأخبارِ
أمنَتْ عيونَ الناظرين فزُرِّقتْ وجه الخـمار فلم تلُذْ بخمـارِ
قد قام ما بين العيون وبينهـا ستر من الأحزان والأكدارِ

ولا شك في أن قصيدة شوقي العاطفيـة قد تركت في نفس حافظ أثراً فهو حين يصف جثمان الفقيد وقد لُفَّ في عَلَم البلاد يستوحي بيت شوقي :

لفُّوك في عَلَم البلاد منكِّسـاً جزعَ الهلالُ على فتى الفيضانِ

مثل هذا المعنى فيأخذه ولكنه يولِّد منه معنى بديعاً يجعل بيت شوقي صامتَ الحسِّ إزاءه ، فهو يقول :

أدرجتَ في العلَم الذي أصفيتَـه منك الوداد فكان خيرَ شعارِ
علَمان من فوق الرُّفوس كلاهما في طيِّه سرٌّ من الأسرارِ
ناداهما داعي الفراق فأمسيَـا يتعانقان على سفير هازي
تالله ما جزع المحبُّ ولا بكى لنوًى مروِّعةٍ وبُعْدِ مزارِ
جزعَ الهلالِ عليك يوم تركتَهُ ما بين حرِّ أسى وحرِّ أوارِ
متلفتاً ، مُتحيِّراً ، مُتخيِّراً رجُلاً يناضل عنه يوم فخارِ

أما القصيدة الثالثة فهي أقرب الى أن تكون خطبة حماسية منها الى شعر المراثي فقد تدفَّق فيها الشعور الوطنيُّ والإحساس بالفراغ الهائل الذي خلَّفه الفقيد . وهذه القصيدة تمثل سمات شعر حافظ أصدق تمثيل عندما كان يعبِّر عن آلام المصريين وآمالهم أصدق تعبير ، وفيها يخاطب الجموع الحاشدة الى قبر الفقيد بهذا البيت :

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا واقضوا هنالك ما تقضي به الذِّمَمُ

ثم يتوجه بالخطاب الى الثورة التي كانت متأججة فقضى الموت لها أن تخمد ، والى المعركة التي كانت متوثبة فقضى عليها أن تهدأ وتسكن ، فيقول :

يأيها النائم الهاني بمضجعه ليهنك النوم لا هم ولا سقم
باتت تسائلنا في كل نازلة عنك المنابر والقرطاس والقلم
تركت فينا مراغاً ليس يشغله إلا أبيٌّ ذكيُّ القلب مضطرم
منفسر النوم مبّاق لغايته آثاره همم ، آماله أمم

وتشتد في نفسه حماسة الوطنية وإباؤها فيترجم عن ذلك بقوله :

لبيك نحن الألى حركت أنفسهم لما سكنت ، ولما غالك السدم
جئنا نؤدي حساباً عن مواقفنا ونستمد ، ونستعدي ، ونحتكم
قيل: اسكتوا. فسكتنا ثم أنطقنا عسف الجفاة وأعلى صوتنا الألم
قد أتهمونا ولما نطلب جللاً إن الضعيف على الحالين متهم
قالوا : لقد ظلموا بالحق أنفسهم والله يعلم أن الظالمين هم
اذا سكتنا تناجوا ، تلك عادتهم وإن نطقنا تنادوا : فتنة صمم

ويمكننا أن نقول — بعد درس شعر حافظ السياسي الذي نظمه قبل تاريخ هذه المرثية — إن هذه القصيدة هي بدء اليقظة القومية في ضمير حافظ ومخلصه من ملابسة الغاصب ومصانعة عُمّاله واعتبارهم المسئولين عن هذا البلد فيوجّه اليهم القول والرجاء كما كان يقع في ذلك من قبل ، فقد اختفت هذه الظاهرة من شعره . ولم تظهر بعد إلا في القصيدة التي نظمها في سنة ١٩١٥ ووجّه فيها الخطاب الى السير مكماهون عند تعيينه عميداً للانجليز في مصر .

وربما كانت هذه المرثية هي الشرارة الكبرى التي قدّر الغاصبُ خطورتها فتنبّه لها وجعل نصب عينيه تحيُّن الفرصة لإخمادها قبل أن تعظم ويستفحل خطرها حتى كان من وراء ذلك بعد سنوات قلائل أن وُضع القيدُ الذهبيُّ في رقبة حافظ وبدا أثره فيما بعد في قصيدته لمكماهون التي أشرنا إليها والتي يقول فيها :

أيّ (مكماهون) قمعت بالسقمد الحميد وبالرّعايه

ثم يقول بعد ذلك :

أضحت ربوعُ النيل سلطنةً وقد كانت ولايه

فتهـــدوهـا بالصـــلا ح وأحيـنوا فيها الوصايه

هذه آثار الشاعرين في هذه النهضة الوطنية . وفي رأينا أن قصيدة شوقي الثانية هي أبلغ هذه القصائد جميعها وأدقّها في تصوير شخصية الفقيد ، وأزخرها قوّة معنى وجمال معنى . وهي من روائع شوقي فقد ظهرت فيها العبورة واضحة كل الوضوح ، ولم يطغ جمال الإطار على جمالها وروعتها لأن التوازن بينهما دقيق ، ولأن الانسجام بين الألفاظ والمعاني فيها محكم التنسيق .

## إعلان الدستور العثماني وخلع عبد الحميد

وفي يوليه سنة ١٩٠٨ أفلحت الحركة التي قام بها الأحرار العثمانيون في حمل السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور بعد إلغائه وعودة الحكم النيابي الى السلطنة العثمانية والقضاء على النزعات الاستبدادية والسلطات الفردية التي رزح تحت نيرها رعايا تلك السلطنة وقاسوا شدائدها أكثر من ثلاثين عاماً حكم فيها هـذا السلطان البلاد حكماً مطلقاً بعد أن عطّل الدستور في سنة ١٨٧٧ ، وكان من جراء ذلك أن عمد الكثيرون من الأحرار الى الهجرة في مشارق الأرض ومغاربها من وجه الاضطهاد لينفّسوا عن آرائهم ورغباتهم في الاصلاح بعيدين عن الرقابة والتجسس ... فما كاد السلطان يعلم أن جيوش أنور ونيازي بطلي هذه الحركة قد تحركت لاستعادة الحكم الدستوري واستخلاصه منه حتى أعاده دون تباطؤ ، فكان لنجاح تلك الحركة وإعادة الدستور في اليوم الرابع والعشرين من ذلك الشهر وقعٌ عظيم في نفوس أهل البلاد الشرقية جمعاء ، وأقيمت الاحتفالات به ، وانبرى الشعراء في كل مكان بكل صقع عربي ، كما انبرى الكتّاب والخطباء يشيدون بهـذا الحدث الجديد . . . يقول الأستاذ أنيس الخوري المقدسي : « ولا نبالغ اذا قلنا إنه ما من حدثٍ حرّك الأقلام العربية كهذا الحدث العظيم ، فقولنا قول من شهد بعينه تلك الحال ، وعرف باختباره شعور الناس وهاركهم في غبطتهم العامة وآمالهم الواسعة »(١)

(١) راجع صفحة ٢٢ من كتاب « الدوافع الفعالة في الأدب العربي الحديث » للأستاذ أنيس الخوري المقدسي . نشرته مجلة المقتطف سنة ١٩٣٩

وقد فرح المصريون لإعلان هذا الدستور مع أن مصر ، في الحقيقة كانت منفصلة في سياستها عن الدولة العثمانية ، ولم يبق لهذه الدولة فيها إلاّ الرابطة الروحية التي تتعلق بالخلافة الاسلامية المتركزة في السلطان العثماني ، ذلك أن مصر كانت تتوق الى عودة الحكم النيابي كما كانت تتوق اليه إيران وقتذاك .

ألقى الأستاذ احمد لطفي السيد بك (باشا) خطبة في الاسكندرية في أعياد سنة ١٩٠٨ قال فيها : « نحن على ذلك نستقبل هذا الدستور بالفرح الذي يستقبله به جميع إخواننا العثمانيين لأنه بشرى للدستور في مصر . فإن من شأنه أن يمجد عزائمنا ويقوّي أصواتنا في طلب الدستور . من شأنه أن يجعل الذين ينكرون علينا القول بسلطة الأمة لا يجدون من الاتفاق معنا في الرأي محيصاً »[1] .

وكانت مصر وطناً ثانياً لكثيرين ممن اضطهدهم العهد الحميديّ فأعلنوا مظاهر الفرح ، وشاركهم الشعراء في مصر وزملاؤهم في شتى البلاد العربية في الفرح بإعلان الدستور العثماني مدفوعين في ذلك بالغرض الذي أشرنا إليه . وهو التعبير عن الرغبة في إعادة الحياة النيابية في مصر ، وكان في الفرحين شاعرانا : حافظ وشوقي .

فأما حافظ فقد نظم قصيدته التونيسة التي هنأ فيها السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه في سبتمبر سنة ١٩٠٨ يذكر فيها فضل السلطان على رعاياه بإعادة الدستور إليهم فيقول :

أنى الحجيجُ عليك والحرَمانِ ... وأجلُّ عيد جلوسك الثقلانِ
أرضيتَ ربكَ إذ جعلتَ طريقهُ ... أمْناً وفوتَ بنعمة الرضوانِ
وجمعتَ بالدستور حولك أُمةً ... شتى المذاهب جمّةَ الاضغانِ
فغدوتَ تسكن في القلوب وترتمي ... حبّاتهـا وتحلُّ في الوجدانِ
راعيتهم حتى علمتَ بأنهم ... بلغوا أشُدّهمُ على الأزمانِ
فجعلتَ أمرَ الناس شورى بينهم ... وأقمتَ شرع الواحد الديّانِ

ويخاطب العثمانيين قائلاً :

(١) راجع صفحة ٣٦ من كتاب « صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر » لمعالي احمد لطفي السيد باشا . نشرته مجلة المقتطف سنة ١٩٤٦

يأيها الشعب الكريم تماسكوا وخذوا أموركم بغير توانِ
ما لي أذكّركم وتلك ربوعكم مرعى النهى ومنابت الشجعان
أدركتم الدستور غير ملوّثٍ بدمٍ ولا متلطخاً بهوانِ

وبعد أن كان يهاجم خصوم هذا السلطان المناوئين لسياسته في القصيد التي هنأه بها في عيد جلوسه سنة ١٩٠١ فيقول:

فدًى لك يا عبد الحميد عصابةٌ عمت أمورها وحزبٌ مذبذبُ
ملكتَ عليهم كل فجٍّ ولجّة فليس لهم في البرّ والبحر مهربُ
تقاذفهم أيدي الليالي كأنهم بها مثلٌ للناس في القوم يُضربُ
وكم سألوا ثم أذيالك التي لها فوق أجرام السموات مسحبُ
فما بلغوا سؤلاً ولا بلغوا مُنىً كذلك يشقى الخائن المتقلبُ

وها يذكر الأحرار الذين ثاروا للدستور وطالبوا به، وأجبروا بثورتهم السلطان على إعلانه فيحيي اليوم الذي هيأ لهم العودة الى أوطانهم بعد أن فارقوها صاغرين ناقمين على البغي والعدوان، بقوله:

يا يوم عاد النازحون لأرضهم يتسابقون لرؤية الأوطانِ
لله كم أطفأتَ من نارٍ ذكتْ دهراً وكم هدّأتَ من أشجانِ
هذا يطير الى (فروق) ومن بها شوقاً وذاك الى رُبى لبنانِ
خلعوا الثياب على البشير وأخلقوا بالثم مهد خليفة الرحمن
وتعانقوا بعد النوى كخمائل يحلو بهنّ تعانق الأغصانِ

حين وصف العصابة التي كانت تتحكم في رقاب الناس محيطة بالسلطان مؤلّبة إياه على كل حرٍّ أبيٍّ بهذه الأبيات:

ولّى زمان المعتدين كما انطوت حِيَلُ الشيوخ وإمّرةُ الخصيانِ
لا الشكُّ يذهب باليقين ولا الرُّؤى تجدي المريء ولا رُقَى الشيطانِ
وُضع الكتاب وضيق جمعهمُ الى يوم الحساب وموقف الإذعانِ
وتوهموهم في القيود نقائلٌ هذا فلانٌ قد رشى بفلانِ

وملبّبٌ لغـــريمه ومطالبٌ بدمٍ أُريق بمسمع الحيتـان
قد جاء يرسم هنا ، وأمامهم بعد النشور هناك يرسمُ ثاني
سبحان من دان القضاء بأمره ليد الضعيف من القويّ الجاني

وفي هذه الفرحة التي شارك بها حافظ العثمانيين وعبّر فيها عن شعور المصريين إزاء إخوانهم في الدين وإزاء إخوانهم العرب الذين كانوا يدينون للسلطنة العثمانية بالحكم لا ينسى حافظ الأمل الذي كان يداعب نفوس المصريين في أن يعيد الخديو النظام النيابي اليهم والذي كان سبباً في مشاركة العثمانيين فرحتهم بإعلان دستورهم ، فهو بعد أن يذكر غرضاً هذه الرغبة مبهمةً في هذا البيت الذي يخاطب فيه الشعب العثماني :

وتذوّقوا معنى الحيـاة فانها في مصر ألفاظٌ بغير معاني

يعود فيردّد هذا المعنى بشيء من الوضوح وتتجلى فيه عاطفةٌ شرقيةٌ فهو لا يتمنى لوطنه وحده الحرية في ظل الدستور وإنما يتمناه لوطن شرقي آخر هو إيران الذي نقر الشاه من إقامة نظام دستوري فيه عندما عرض عليه جمال الدين الأفغاني ذلك ، فيقول :

خطرتْ فعطّرتْ المفارق عندما هبت نسائمها من البلقانِ
يا ليتها خطرت بمصر وأشرقت في يوم أعيادها على طهران
أضناها عبوسٌ قد ابيضت له كبداها وتصدّع القلبـان
عرف الورى ميقاتها فترقبوا (تموز) مثل ترقّب الظمآن
شهرٌ به بُسمت الرجاء وأُشرت أمرٌ وبدّل خوفها بأمانِ

ويزيد التعبير وضوحاً وهو يخاطب هذا الشهر الذي أُعلنت فيه الحياة الدستورية لتلك السلطنة بقوله :

تموز ! أنت أبو الشهور جلالةً تموز ! أنت مُنى الأسير العاني
هلاّ جعلت لنا نصيباً علّنا نجري مع الأحياء في ميدان
أيعود منك الآملون بما رجوا ونعـود نحن بذلك الحرمان ؟
تموز ! إن بنا اليك لحاجةً فئني الأوان ، وأنت خير أوانِ ؟

ولقد كان حافظ في ذلك معبراً عما كان يجيش النفوس وقتذاك في مصر ، إذ كان المرحوم

محمد فريد بك الرئيس الثاني للحزب الوطني قد استهلّ رياسته لهذا الحزب بالدعوة الى إعادة الحياة النيابية الى البلاد ، وذلك قبل أن تعلن عودة الدستور العثماني بشهور . . . ويذكر الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك أن المرحوم فريد بك قد عمل على بعث حركة إجماعية من الأمة للمطالبة بالدستور يتوجه بها الى الخديو ، وأعدّ الحزب الوطني عرائض لتقديمها اليه بطلب إنشاء المجلس النيابي ، وطبع الحزب عشرات الآلاف منها ووزعها على أعضائه وأنصاره والمتعاطفين كافة في جميع الجهات للتوقيع عليها ، فأقبلت الأمة على هذا المشروع عن طيب خاطر إقبالاً إجماعيًّا . واستمر الحزب يجمع العرائض الى أن اكتمل لديه الفوج الأول منها وعليها ٤٥٠٠٠ توقيع ، ومن ثمّ قابل رئيس الحزب الخديو يوم السبت ٢٥ من ابريل سنة ١٩٠٨ وعرض عليه أمر هذه العرائض فطلب اليه تقديمها الى رئيس الديوان الخديوي فقدمها اليه [1] ثم دفعها بفوج آخر .

* * *

ويروي الأستاذ الرافعي بك انه على رغم ما أبدى الخديو من ارتياح في بداية الأمر الى تقديم العرائض اليه فإنه قابل اتساع الحركة بالفتور ، ولم يلبث أن تغير موقفه حيالها ، ولعلّ السبب في هذا التحوّل ما أدركه من أنها أغضبت الاحتلال فتنكّر لها وبخاصة لتورّطه في السياسة المعروفة بسياسة الوفاق [2] .

لذلك نرى عوقبًا في قصيدته التي نظمها في هذه المناسبة ، وهي التي يقول في مطلعها :

بُشرى البريّة قاصيها ودانيها حاط الخلافةَ بالدستور حاميها
لمّا رآها بلا رُكْنٍ تداركُها بعد الخليفة بالشوري ونادِيها
وبالأبيّين من قومٍ أماتهمُ بُعدُ الديار وأحياهم تدانيها
حنّوا إليها كما حنّت لهم زمناً وأوهك البين يبليهم ويبليها
معنّقين على الضبراء تحسبهم رحّالةَ البدو هاموا في فيافيها
لا يقرب اليأس في البأساء أنفسهم والنفس إن قنطت فاليأس مرديها

(١) راجع كتاب « محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية » للرافعي بك ص ٥٨ و ٥٩
(٢) المرجع نفسه ص ٦٠

يمسّ هذا الغرض مسًّا رفيقاً رقيقاً ، فهو حذرٌ في الإشارة إليه كعذره في رثاء مصطفى كامل على ما بيّنّا من قبل [1] . وهو ما يكاد يجد القول قد جرّه الى ذكر الرغبة في إعادة الدستور في مصر حتى يختم القصيدة كما يتضح ذلك من هذه الأبيات الأربعة التي جعلها ختامها :

| | |
|---|---|
| ياشعب عثمان من ترك ومن عرب | حيّاكَ من يبعث الموتى ويُحييها |
| صبرتَ للحق حين النفس جازعة | والله بالصبر عند الحق موصيها |
| نلت الذي لم ينلهُ بالقنا أحدٌ | فاهتف (لأنورها) واحدٌ (فيازيها) |
| ما بين آمالك اللائي ظفرتَ بها | وبين مصر معانٍ أنت تدريها |

فهو لم يكن في ذلك كما كان حافظ صريحاً مجاهراً بالدعوة لأن الخديو كان قد بدأ يغيّر رأيه الأول ويتحول عنه . وشوقي بطبيعة صلته بالقصر مضطرٌ الى أن يعالج سياسته . وهذا الغموض الذي يقف عنده الباحث يستقصي أسبابه في هذا الموقف تجلوه كلة كتبها الأستاذ أحمد لطفي السيد بك ( باها ) في العدد الصادر من الجريدة في ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ يردّ بها على حديث أدلى به شوقي الشاعر في هذا الشأن ، فقد قال :

«فهم الناس من حديث شوقي بك الشبيه بالرسمي أن مابدين تعترف للانكليز على مصر بشيء من الحقوق أو على الأقل أن الانكليز قد أصبحوا شركاء لسموّ الخديو في حق الحكم. في حين أن شوقي بك يقول في حديثه أن جلالة السلطان يعتبر أمر البرلمان المصري من الحقوق الخاصة بسموّ الخديو . فكأن شوقي بك يريد أن يقول في معرض الاعتذار المصريين عن الجناب العالي أو عن عدم استعداد سموّه الى منح الدستور أن الاحتلال الانكليزي الذي لم يُبقِ لسموّ الخديو سلطة فعلية ذات أثر حقيقي في حركة الحكومة والذي قصر سموّه على حيازة الحقوق الشرعية دون استعمالها أن هذا الاحتلال أصبح شريكه في تلك الحقوق الشرعية أيضاً لأن منح الدستور هو تنازل من قبل الأمير عن بعض حقوقه الشرعية ، فاذا علق سموه هذا التنازل على رضى الانكليز كان معناه أنه معترف بأن للانكليز حقوقاً على مصر » ... ثم يقول «غير أن شوقي بك ذلك الشاعر المطبوع القديم والسياسي الجديد أراد بحديثه صرف الأمة المصرية عن طلب حقوقها من الجناب العالي فوضع سيده

(١) راجع مقتطف ديسمبر الماضي صفحة ٤١٤ و٤١٥

بهذه التصريحات في مركز كان مركز السكوت خيراً منه » (١)

فهذه الخيوط هي التي توصلنا الى حل العقدة التي يقف عندها الباحث في غموض شوقي في الاشارة الى مطلب المصريين في إعادة الدستور والحياة النيابية في الوقت الذي تمكن حافظ فيه من التصريح بذلك والمجاهرة به في هذه المناسبة . بينما نراه بعد تسعة أشهر من ذلك يذكر هذا الهدف واضحاً ويشيد بالدستور وصيانته للملك ، وذلك في القصيدة التي تناول فيها موضوع خلع عبد الحميد وارتقاء أخيه السلطان محمد رشاد العرش حيث قال :

أوذيت من دستورهم وحنَنْتَ للحكم العسير
ضنّوا بضائع حقّهم وضننتَ بالدنيا الغرور
ملأ احتفظت به احتفا ظ مرحّب فرح قرير
هو حليـة الملك الرشيـد وعصمـة الملك الغـرير
وبه يبـاركُ في المما لك والملوك على الدهور

فهذا التغير والتبدّل أثر ان من آثار سياسة القصر التي كانت تسيّر شاعرية شوقي في اتجاهاتها ولا تترك مطلق العنان يجاري عاطفته فلا يكبتها ويجاري تيار الرأي في البلاد فلا يعبّر عن هذا الرأي كما يحقّ له أن يعبّر . فلما اتجهت سياسة القصر في مصر قبل خلع عبد الحميد في تركيا اتجاهاً غير الذي وقفت عنده إذ اعتزم الاحتلال ، تهدئةً لخواطر المصريين ، إدخال بعض تعديلات في النظم الدورية التي كانت قائمةً في البلاد عساها أن تقنع الأمة وتصرفها عن المطالبة بالدستور فتضعف الحركة الوطنية وتخبو نارها ، وصدر أمر في ٣٠ من يناير سنة ١٩٠٩ بتعيين الأمير (السلطان) حسين كامل رئيساً لمجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وافتتحت الجمعية العمومية في اليوم الأول من فبراير سنة ١٩٠٩ . . . (٢) عند ذلك وجدنا للدستور وقيمته في صيانة المُلك أثراً واضحاً في شعر شوقي .

لقد دفعنا الى هذا الاستطراد التاريخي الغموضُ والحذر المهيمنان على قصيدة شوقي الأولى في هذه النقطة بالذات لنصل الى سرّها ونصل الى سرّ الصراحة التي تجلّت في قصيدته الثانية .

حسن كامل الصيرفي

(١) صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر — ص ٦٧ و ٦٨
(٢) يراجع في ذلك كتاب « محمد فريد » للاستاذ عبد الرحمن الرافعي بك — ص ١١٤ و ١١٥